في طريق الوحدة

«محرم» بين السنة والشيعة ...

الأستاذ حسين مروه

أما أن اليقظة الاسلامية قد غمرت دنيا المسلمين على رحبها ـ فهو مما لا ريب فيه ، وأما أن المصلحين من مختلف الأقوام الاسلامية قد خطوا هذا العام المنصرم إلى الوحدة والتقريب بين القلوب خطوة واسعة مباركة ـ فهو مما لا يخامرنا فيه أدنى هاجس من الشك ، ولسنا اليوم بصدد التدليل على هذا كله ، ولسنا كذلك نحاول أن نذهب في تصوير الأمر مذهباً يُغَشّي على الحقيقة فنجني الجناية الكبرى على هذا الأمل المشرق الذي نمشي على هداه إلى المثل الكريم الأعلى الذي ننشده

لقد عمل المصلحون في الآونة الأخيرة كثيراً ، واستطاعوا أن ينشئوا خَلْقاً جديداً في المسلمين ، خَلْقاً يقول ، إنّ حوادث التاريخ إذا استحال أن يتغير مجراها فتنقلب عما وقعت عليه فليس من المستحيل أن نغير نحن مجرى أهوائنا المتدافعة ، ونقلب هذه الأفكار السائدة علاقات أهل القرآن رأساً على عقب أو نستبدل بها خيراً منها ، فاذا نحن أمة متكتلة تظلها راية الله العليا ، تلك راية الإسلام الحنيف . ولكنّ هنالك خَلْقاً آخر في المسلمين لما يزل من خَلْق الأيام الغابرة السوداء ، الأيام التي أخذ الناس فيها بالجانب البغيض من صفحتي التاريخ الاسلامي ، وأعرضوا عن الجانب الحبيب الأغر اللامع ، وهذا الخَلْق في المسلمين ـ وهو كثير وآأسفاه ـ يجب على المصلحين أن يرحموه ، أن يشفقوا على ذهنيته الضيقة الساذجة فلا يوقرونها بما لا تطيق احتماله وهي على هذا الضيق بفهم الأمور ، وأن يأخذوا بيده إلى مشارق النور بهوادة ورفق حتى يلمس الحق هو بنفسه . وأن يتملقوا أحاسيسه المختولة المخمورة بأغنيات التعصب ـ وناهيك بالتعصب ضارباً على وتر الأحاسيس الواهنة ـ ولا يحسبن القارئ الكريم أنني أدعو إلى اتباع العامة ومجاراة أهواء الدهماء ونزعاتها الهوجاء ، فأنا ـ شهد الله ـ من أشد الناس نقمة على جماعة العلماء الذين يتملقون السواد ، ويهابون اندفاعات الجماهير ، ويسترون ـ من أجل ذلك ـ الحق خشية من غضب هؤلاء عليهم ، فيقطعون معايشهم ويحطمون عروش أمجادهم ، ويؤثرون عرض الحياة الدنيا على أن ينطقوا بكلمة الصدق ويقيموا شعائر الحق . غير أني ـ على ذلك ـ أخشى هذا الفريق من رجال السوء الذين يستغلون ذهنية الجماهير لأنفسهم ويسخرونها لأهوائهم ، فاذا ما تناسى المصلحون شأن الدهماء ، وإذا ما أغمضوا أعينهم عما في نفوسها من حقير العواطف وفي عقولها من ساذج الادراك ، فقد يقوم هذا النفر المستغل يدعو بالويل والثبور ، ويرفع عقيرته البغيضة نافخاً في الجماهير روح الفرقة ، عاملاً على صدع الصف ، ضارباً بآمال المصلحين عرض الأفق فتصبح الآمال الحية أشلاء أباديد ، فيجب على القائمين اليوم بأمر الاصلاح ـ والحال هذه ـ أن يقيموا الأوزان للجواهر قبل الاعراض ، وأن يحفلوا باللباب دون القشور ، وأما الأعراض وأما القشور فليس من ضير علينا أن ندع للذين يحفلون بهما أمر ما يحفلون به حتى يتبين لهم أن العرض عرض فينبذونه ، وأن القشر قشر فيطرحونه ؛ وليس من ضير علينا أن نستكفف شر ذلك النفر العائش على تمليق العامة بأن نحسم بعض القضايا التي يتخذها القوم هؤلاء مطية للغرض الأدنى ، ووسيلة لأثارة النعرات المفرقة ، وهَيْج العواطف الحانقة .

وفي طليعة هذه القضايا التي يطل رأسها اليوم ـ ورجالنا المصلحون يجهدون بجمع الشمل ورأب الصدع ـ قضية تقف بطائفتي المسلمين . السنة والشيعة على مفترق الطريق ـ والعياذ بالله ـ بعد أن كان يغمرنا موج من الفرح لهذه الظاهرات المباركة الطالعة علينا هنا وهناك ببشائر الوحدة الاسلامية المنشودة ، ذلك أننا اليوم ـ حين نكتب هذه الكلمة ـ نعيش في شهر من الشهور التي تحمل إلينا من ذكريات الماضي البعيد صوراً ذات ألوان مختلفة . وأشكال متباينة في ظاهر الأمر ، وإن هي كانت في الجوهر والروح ، وفي نظر الذين يزنون الاسلام بميزانه الصحيح متسقة أحسن الاتساق ، منسجمة أكمل الانسجام .

إننا اليوم فى شهر محرم الحرام ، وشهر المحرم هذا ذو صفحتين من الذكرى كلتاهما ذات خطر عظيم ، وكلتاهما ذات شأن كبير فى نفوس المسلمين ؛ فنى إحدى صفحتيه يحمل ذكرى هجرة المنقذ الأعظم ، رسول الله ، محمد بن عبد الله ، عليه صلوات من ربه وبركات ، ذكرى هجرته إلى يثرب حيث قامت سوق الاسلام وعمرت ، وحيث استفاضت أنوار الشريعة الغراء لألآءة الرواء ، ضافية البهاء ، ثرّة الأضواء ؛ ويحمل فى صفحته الأخرى ذكرى عاشوراء ، ذكرى حادثة الطف الدامية حيث استشهد ريحانة رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحسين بن على مجاهداً فى سبيل الحق ، وحيث نجم — لأول مرة — قرن الانقلابات الخطيرة ، والثورات الداخلية الجيّاشة .

هاتان صفحتان من الذكريات الاسلامية ذات الشأن يحملهما شهر المحرم ، ويطلع بهما على المسلمين ، فتستقبله طائفة من ناحيته الأولى فتجعل يوم مطلعه عيداً ميمون النقيبة ، محمود الأثر ، أغر الجبين ، وتستقبله طائفة من ناحيته الثانية فتجعل يوم استهلاله مأتماً قاتم اللون ، أغبر الوجه ، دامى القلب ؛ وتنظر - من بعد - كل طائفة إلى أختها النظر الشزر ، وتتباعد وجهة النظر ، وتتسع شقة البين ، ويطلّ النفر المستغل برأسه وينفخ فى بوقه ؟ وهذا هو الشر المستطير الذى نريد أن نكفكف من عاديته فى وجه الحركة الإصلاحية القائمة اليوم ، وهذا هو الأمر الجلل الذى نحاول أن يخفف المصلحون من سورته ، وها نذا أضع - فى ختام هذه الكلمة - اقتراحاً على رجالنا العاملين فى حقل الوحدة الاسلامية ، أرجو أن يجدوا فيه حلا حاسما لهذه القضية التى يرى القارىء خطورتها . وأرجو إلى إخواننا علماء الأزهر المصلحين أن يقولوا كلمتهم فى « الرسالة » الكريمة حول هذا الباب ليرى العالم الاسلامى رأيهم المحترم المرموق بالتقدير :

يجمع المؤرخون - ياسادتى - على أن مقدم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة كان فى اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الأول ، أى بعد أول المحرم بشهرين واثنى عشر يوماً ، كما جاء فى تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٢٥٣ باب (ذكر الوقت الذى عمل فيه التاريخ) ، وفى مروج الذهب للمسعودى ج ١ ص ٤٠١ ، وفى غيرهما من مصادر التاريخ الاسلامى الموثوق بروايتها ؛ وتدل الروايات فى هذا الباب على أن أول من أمر بالتاريخ فى الدولة الاسلامية هو الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ، وأنه هو اختار هجرة النبى صلى الله عليه وسلم مبدأ للتاريخ الاسلامى ، وقال يومئذ كلمته الصادقة الحكيمة حيث جمع الناس للمشورة ، فقال بعضهم : أرخ لمبعث رسول الله ، وقال بعضهم : أرخ لمهاجر رسول الله ، فقال : « لا بل نؤرخ لمهاجر رسول الله فان مهاجره فرق بين الحق والباطل » ، وتدل هذه الروايات نفسها كذلك أنه هو — عمر — اختار شهر المحرم مبدأ لشهور السنة الهجرية قائلا أيضاً : نبدأ بالمحرم ، فهو منصرف الناس من حجهم وهو شهر حرام ، والحق فيما قال من هذه الناحية ، غير أنى أقول الآن :

مادام قد وقع الاختيار على بدء السنة الهجرية بشهر المحرم لهذا الغرض الذى جاء فى كلام الخليفة الثانى الكريم ، وجرت على ذلك السيرة فى عصور الإسلام جمعاء ، فلتبق هذه السيرة مستمرة ولا ضير ، ولا نريد أن نبدع بدعاً فى هذا ، أما ذكرى الهجرة نفسها ، الذكرى التى هى لا غير مبعث تقديس المسلمين لرأس السنة الهجرية ، وهى التى يحتفلون بها ، ويجعلون يومها عيدا كريما مباركا — أقول : أما هذه الذكرى نفسها ، فليس من غضاضة فى أن يكون الاحتفال بها ، وأن يكون عيدها الميمون فى يومها الذى وقعت فيه الهجرة النبوية الشريفة على التحقيق ، فى يومها التاريخى الصحيح حيث يكون عيدا للمسلمين كافة : يشتركون بأفراحه ، ويتبادلون مظاهر السرور ، ومجالى الاغتباط . وإذا ما جاء شهر المحرم - من بعد - اشتركوا جميعاً كذلك فى مشاعر الألم ، وهواجس الحزن للمأساة الاسلامية الرائعة التى تمثلت فى طف كربلاء ، وكرموا نبيهم صلى الله عليه وسلم بالتأسى به إذ جاء فى الأسانيد الصحيحة أنه صلى الله عليه وسلم كان يستشعر الحزن فى هذا الشهر : شهر المحرم ، فنكون بذلك قد وضعنا حجر الزاوية فى بناء الوحدة الاسلامية المرجوّة ، ولا نكون قد فرطنا فى شىء من ما جريات التاريخ ، ولا نقضنا شعيرة من شعائر السلف أو حرمة من حرمات الاسلام .

فما قولكم ياسادتى ؟ ؟

النجف

حسين مروه